المدونة
المجلد 11/ العدد 01/ جوان 2024. ص 277- 294

جماليات المكان ودلالة المعنى في السّيرة الذاتية سيرة "لقبش" لعياش يحياوي أنموذجا

The Aesthetics of Place and the Significance of Meaning in the Biography of "La kbash"by Ayash Yahyaoui as a Model

عيسى طهاري*

تاريخ الإرسال: 2023/06/30	تاريخ القبول: 2024/05/20	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

إنّ المكان في النَّص السيرذاتي ليس مكاناً جغرافياً صرفاً ولا هو مكان فنّي تخييلي، إنَّما هو مكان يشكل رموزه التي تعيد تشكيل أدبية النّص والرؤية فيه، مما يضفي جمالية خاصة لهذا الجنس الأدبي.

تهدف هذه الدراسة إلى الجمع بين السّيرة الذاتية والمكان، لأنَّها بحكم طبيعتها وقربها من الواقع خير ممثلٍ للمكان بكل تجلياته، فهي والمكان قرينان لا يفترقان، لذا سنسعى لإثارة إشكالية المكان ودلالته في السيرة الذاتية من خلال سيرة "**لقبش**" **لعياش يحياوي**ليس بالنظر إلى كيفية حضوره فيها، وتوظيفها له فحسب، بل بإضافة عنصر الإنسان باعتباره المنتج الفعلي لكل دلالات المكان.

الكلمات المفتاحية: السّيرة الذاتية، عياش يحياوي، جماليات المكان، لقبش، تشكيلات المكان.

Abstract:

Place in the biographical text is a place that forms its symbols from reshaping literary texts and the vision in it so as givingthis genrespecial aesthetics.

*جامعة البليدة 2 a.tahari@univ-blida2.dz

This study aims to combine the biography and the place as by virtue of its nature and its closeness to reality, it is the appropriate representative of the place in all its manifestations because they are inseparable pairs. The research seeks to raise the problem of the place and its significance through the biography of "Lakbash" by Ayash Yahyaoui by adding the human part as the actual product of all place indications.

***Key words**: biography, Ayash Yahyaoui, place aesthetics, Lakbash, place indications*

*** *** ***

المؤلف المرسل: عيسى طهاري a.tahari@univ-blida2.dz

مقدمة:

إنَّ علاقة الإنسان بالمكان علاقة جدلية، فبقدر ما يسهم المكان في تشكيل وعي الإنسان بوجوده، ويطبع فكره ويحدد هويته، بقدر ما يسهم الإنسان هو الأخر في إضفاء خصائص إنسانيته على المكان بأنسنة فضائه وتبديل صفاته، وعلى الرّغم من هذا، لم يحظ المكان بالاهتمام اللازم في الدراسات الأدبية والنقدية كما حظيت به عناصر السَّرد الأخرى، كالشخصيات والزمن، واللغة، حيث غفلت عمّا يضطلع به من وظيفة بالغة الأهمية في تشكيل الفضاء في النَّص السَّردي، وتحديد مواقع الشخصيات، ونمو الأحداث وتطورها، وبه يضمن النَّص السردي تماسكه الفني.

يشكل المكان أحد الأركان الرئيسة التي تقوم عليها العملية السردية حديثاً، والسيرة الذاتية باعتبارها فنًّا سرديا، وبحكم طبيعتها وقربها من الواقع تعد خير ممثل للمكان بكل تجلياته ومظاهره، لذلك اختارت هذه الدراسة الجمع بين السّيرة الذاتية والمكان، فبقدر ما تحتاج السّيرة الذاتية إلى المكان لتؤسس من خلاله بناء عالمها مع بقية العناصر، يحتاج إليها المكان ليكشف عن دلالاته ووظائفه.

إنّ الموضوع الذي تسعى الدراسة إلى تناوله هو علاقة المكان بالشَّخصية مؤثرا ومتأثرا، فهو يشكل الإطار الحركي لأفعال الشخصيات في السّيرة الذاتية. فضلاً عن وظيفته في تفسير صفاتها وطبائعها عندما يعكس مواقفها وسلوكها، مما يجعله في هذا

الجنس الأدبي «رمزاً لحياة البشر، يجسد الغربة والملل والضيق والمفارقة والعبور المؤقت، ويؤثر على مفهوم الزَّمن، فيعكس اضطرابه بين الديمومة واليومي، بين السطحي والعميق، وبين الوهم والحقيقة»(1).

ومما حفزني لهذه الدراسة إضافة إلى أنَّ المكان في النَّص السّيرذاتي ليس مكاناً جغرافياً صرفاً ولا هو مكان فني تخييلي، إنما هو مكان يشكل رموزه التي تعيد تشكيل أدبية النّص والرؤية فيه، مما يضفي جمالية خاصة لهذا الجنس الأدبي، ما تفتقر إليه السيرة الذاتية من الدراسات النقدية التي تُعنى بعنصر المكان، وهو نقص لا يتناسب مع وفرة الدراسات التي حظيت بها الفنون السردية الأخرى كالرواية والقصة، لذا تأتي هذه الدراسة لإثارة إشكالية المكان ودلالته في السيرة الذاتية من خلال "**القبش**" السيرة الذاتية للأديب الجزائري **عياش يحياوي**: فما هو المكان الفاعل في سيرة "**القبش** " لعياش يحياوي؟ وما هي أنماطه ومظاهره من خلال علاقته بكاتب السّيرة مؤثراًومتأثراً؟ أمَّا فيما يخص المنهج الذي سلكته الدّراسة، فلم يكن منهجاً واحداً، بل عدة مناهج، منها المنهج النفسي والمنهج الوصفي التحليلي،..

2. جمالية المكان: المصطلح والمفهوم:

1.2 الجمالية:

جاء في لسان العرب: «الجمال هو الحسن والبهاء»(2)، والجميل هو ما يعجب الناظرين ويدخل السّرور على نفوسهم، أما مصطلح الجماليات فهو من الجمالية وهي«بحث في نسق العناصر المكونة للظاهرة لبيان الوظيفة التي تقوم بها داخل العمل الأدبي بشكل عام»(3).

إنّ الجمالية «تشير إلى النواحي الفنية في النص الأدبي، وعدت الجمالية من أبرز الخصائص التي تمنح النص أدبيته»(4)، فعملية الاستمتاع الجمالي بالنص هي عملية نامية وخلاقة، ذلك أنّ علم الجمال ليس قوانين بل هو ملاحظة وتفسير وتذوق.

2.2 جمالية المكان:

المكان لغة هو الموضع الثابت المحسوس القابل للإدراك، ويقول ابن منظور: «المكان الموضع، والجمع أمكنة وأماكن، والمكانة: الموضع»[5]، ولم يحظ المكان بالاهتمام إلا حديثا، فلم يعد « مجرد خلفية للأحداث والشّخصيات» [6]، بل أصبح كسائر العناصر الأخرى للقصة «يقوم بدور فاعل في بنائها وتركيبها، منه تنطلق الأحداث وفيه تسير الشخصيات»[7]، أي أنه« لا يعتبر معادلا كنائيا للشخصية الروائية فقط، ولكن أصبح ينظر إليه على أنه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفني»[8].

كما يعرف المكان (**Space**) أيضا بالحيز أو الفضاء الذي تقدم فيه الوقائع، والذي تحدث فيه اللحظة السردية، وجوهر الفرق بين المصطلحين هو «أنّ دلالة مصطلح المكان على المكان الواحد المنفرد في العمل السردي، ودلالة الفضاء على مجموع الأمكنة التي تظهر في العمل السردي كله وتشكل مسرحا له»[9].

وبهذا، فالفضاء في النصوص السردية يضم أمكنتها جميعا، فحين تتضافر تخلق الفضاء الجغرافي للنص السّردي، «لأنّ الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان، والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء»[10]، ومن هنا فالمكان هو البنية الصغرى المحدودة مثل البيت والمقهى، في حين يكون الفضاء البنية الكبرى، الواسعة والشاملة التي تحوي جميع الأمكنة المتخيلة والمرجعية في النص الروائي.

3. المكان في السّيرة الذاتية:

السيرة الذاتية **Autobiography** إنّ السيرة في تعريفها العام هي بحث يستعرض فيه الكاتب حياته أو حياة أحد المشاهير، مبرزا من خلاله المنجزات التي تحققت في مسيرته أو مسيرة المتحدث، أمّا فن السيرة، فهو «نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والإمتاع القصصي ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته»[11]، لذلك «لا يعد العمل الأدبي سيرة بالمعنى الحقيقي إلا إذا كان تفسيرا للحياة الشخصية في جوهرها التاريخي، فهي ليست مجرد أخبار تاريخية ولا هي مجرد تحليلات نفسية أو اجتماعية، بل هي كل ذلك مسبوكا في قالب فني »[12]

أما مصطلح السيرة الذاتية فهو حديث النشأة، حيث ظهر في القرن التاسع عشر، وعرفها **فليب لوجون: Philippe Lejeune** بأنها «حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة»[13].

إنّ المكان في نصوص السّيرة الذاتية يلعب دوراً هاماً في تكوين مرجعيات الذات التي تحكي تجربتها، إضافة إلى دوره في جعل أحداث النّص ومواقفه ووقائعه ممكنة الحدوث، وتشي بواقعيته و قربه من المعقول، «ولأنّ السّيرة الذاتية تعتمد في عملية السّرد على وجهة نظر الراوي القائم بالسرد الذي هو المؤلف نفسه، فيكون بذلك كلّي العلم والحضور، يعايش النّص منذ ولادته وإلى أن يغدو نصاً متكاملاً باسطاً سلطانه عليها»[14]وبهذا، لا يمكن للمكان أن يظهر في السيرة الذاتية إلا من خلال وجهة نظر الشخصية التي تعيش فيه.

4.لقبش سيرة ذاتية لحليب الطفولة:

سيرة **"لقبش"** الجزء الأول من السيرة الذاتية للأديب الجزائري عياش يحياوي، توزعت فصولها 32 على 224 صفحة، تنتمي نصوص "لقبش" إلى الواقع السيرذاتي المصرح به، ولكنها في الوقت نفسه رصدت مختلف العلاقات الإنسانية والاجتماعية وحتى السّياسية منها في فترة من أصعب الفترات التي مر بها الشعب الجزائري، وقد كان الكاتب فيها جريئا في التركيز على تعرية الذات والبوح بآلامه،واضعا ماضيه بكل تناقضاته وفقره ويتمه حقلا مرجعيا مشكلا منه لحمة سيرته الذاتية وبنياتها الجمالية والفنية.

إنّ **لقبش** سيرة ذاتية تقدم لنا واقعا مؤلما، ولكنها ومن خلال البنية الفنية تبدو للقارئ رحلة سردية ممتعة، إنها واقع كان حقيقة حية عاشها الكاتب وصورها بفنية جمالية تنهل في بنيتها العميقة من معطيات المدرسة الواقعية في الأدب كالبؤساء **لفيكتور هيجو** والمعذبون في الأرض **لطه حسين**.

ولأنّ وظيفة السيرة الذاتية هي أن «تحقق لكاتبها التوافق والاتزان، إذ تيسر له أن يعيش حياته الداخلية والخارجية والعليا من خلال ذكرياته »[15]، فهذا ما سعى إليه

الكاتب **عياش يحياوي** من خلال سيرته الذاتية، «فإن ما حدث لشخصية **لقبش** من أحداث غير متوقعة يدخل ضمن سياق سيرة الاعتراف الذاتي –المدهش- بأصوات متعددة» (16)، يحاول الكاتب استرجاع ذكريات طفولته، فتنسكب أحداثها قطرة قطرة، لكنها بدل أن تروي حنينه لتلك الأيام وتضمد جراح براءته البائسة تتحول إلى جمرات حارقة تلسع جسده الطفولي، وتزيد إحساسه بالظلم والقهر، غير أنه لا يتردد فينتهج التعرية والبوح ليكشف معاناة جيل كامل ممن عاشوا تلك الفترة من تاريخ الجزائر

يروي الكاتب أحداثا ماضية تستعيدها ذاكرته في شكل ومضات أو خواطر قصيرة لتبدو للقارئ في تشذر زمني غير خاضع للترتيب المنطقي، بل هي نتاج للتداعي الحر لما حفظته واختزنته الذاكرة سنوات الطفولة.

إنّ فعل الكتابة في سيرة لقبش مبني على الاستعادة الدائمة للأحداث التي تحيل القارئ الى الدلالات ذاتها وهي الإحساس بالظلم والقهر، كما أنه أحيانا ما يوقف السرد التسلسلي، ويعود بالقارئ إلى الحاضر ليربطه بالماضي، ويكثف إحساسه بالحسرة والألم، فكأنّ الماضي يسكن الكاتب، ولا يغادره أبدا، إنّه ذات معذبة تتأرجح بين الماضي بأحزانه ومعاناته والحاضر بحنينه، إنّ حياة الحاضر المترفة لم تكن كافية لتنسيه ماضيه الحزين، بل كانت محفزا قويا للذاكرة لاستعادة الماضي بكل تفاصيله.

تتداخل الذاكرة مع الحلم في سيرة لقبش أي «التحام الذاكرة بما تحمله من أنساق راجعة لهوية الذات بالحلم الواعد في سيرة الطفولة بذكرياتها الهاربة، ومن ثم فإنّ تصوير الحقيقة عبر الذاكرة في شكلها الفني يبعث في السيرة الذاتية الحياة من جديد من خلال اللغة التي تسهم –بدورها- في تشكيل الصورة المتوخاة من الكاتب، وفي عرض الكيفية التي جعلته يقدم هذا الموقف دون ذاك أو في الإقدام على إظهار ما يفيد تجربته التي لا يمكن تجاوزها وفي ضوء ذلك لا تكون اللغة مجرد كساء خارجي للفكر»(17).

5. جمالية المكان في "لقبش":

تمثل سيرة "لقبش"رافدا فاعلا داخلا في صلب تجربة الكاتب الشخصية، حيث نتلمس معالم أمكنة عديدة متنوعة التفاصيل والأحوال، فينتخب الكاتب أحداثا ذات

ISSN 2437-0819 EISSN 2602-6333

أبعاد مكانية مركزية في حياته لها أهميتها من خلال سرد تجاربه ومغامراته لسنوات طفولته، فتسرد الأحداث عبر تبئيرها بوعي الطفولة، لذلك تعددت الأمكنة في السيرة، فهي بين المدينة والقرية مسقط رأس الكاتب والتي تتفرع إلى أمكنة فرعية أخرى، يمكننا توزيعها إلى فئات من حيث الوظيفة والدلالة، وتقسيمها وفق ثنائية (**المغلقة/ المفتوحة**) وتضم هذه الثنائية الأماكن الآتية:

1.5 الأماكن المغلقة:

- **البيت:** هو المسكن أو المنزل أو المأوى الذي نأوي إليه طلبا للراحة والأمان، إنّه البنية الأساسية للعمران البشري في القرى والمدن، و كما يراه **غاستون باشلار** «جسدٌ وروح، وهو عالم الإنسان الأول»[18]، بل هو الإنسان، فـ« إذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان، فالبيوت تعبر عن أصحابها»[19]، بما تحمله من صفة الألفة والدفء العاطفي، والإحساس بالطمأنينة.

وقد تعددت تسميات البيت في سيرة **"القبش"، كالمنزل والبيت الطيني، والدار، والقربي**،..ولكنها جميعا تؤكد دلالة المكان الذي مفادها يتجمع فيداخله أفراد العائلة، ليمارسوا علاقاتهم الإنسانية.

البيت الطيني: إنه كما يصفه **غاستون بشلار** «بيت الطفولة هو مكان الألفة ومركز تكييف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه»[20]، وقد ارتبط وجوده بالقرية التي نشأ فيها الكاتب، «يذكر الصبي أن دارهما الطينية غرفة واحدة هناك في الزاوية حيث اِسودّ الحائط يقع الكانون، وبجواره ثلاث صخور هي المناصب، وعلى اليسار يقع القش، وهو مستند إلى دعائم خشبية مرتفعة عن الأرض فوقه الأغطية والمزاود الخاوية، بينهما توجد الظبية وتحتوي على بعض الشحمة والفرماس والفلفل الحار اليابس "**القاوجة**" وفوق القش فخة الفئران،.. »[21]

يظهر البيت في هذا المقطع دارا طينية، من غرفة واحدة وصف الكاتب جدرانها وأثاثها، ومختلف مكوناتها، فهي لا تحتوي عناصر الراحة، ومع ذلك يرتبط الكاتب بها ارتباطا شديدا، فهي فضاء للماضي والطفولة، ولد وتربى فيها.

وعلى الرغم من البيوت والقصور المتعاقبة التي سكنها الكاتب يبقى مصدر لفيض من المعاني والقيم، ونموذج لمظاهر الألفة والمحبة التي عاشها الكاتب في طفولته، لذلك يحن إليه دائما، «في المساء يعود إلى البيت المتواضع يستقبله سرب الدجاج وثغاء الخرفان الصغيرة واحلام المساء»[22].

وفي مقطع أخر يحاول أن يذكي مشاعر الحزن والشفقة في نفس القارئ، «كان السقف غير قادر على وقاية العائلة الصغيرة من مياه المطر،...ويذكر الصبي أن العائلة الصغيرة لم تكن تسكن وحدها في تلك الغرفة فقد كان يسكن معها أيضا بوكشاش والفئران والقروشة والسنونو وديدان تأتي من الخارج، وأحيانا **العقرب** في فصل الصيف»[23]، تحمل الأوصاف الداخلية للمكان دلالات الحزن والحسرة، وتكشف عن حياة البؤس والفقر التي عاشها مع عائلته الصغيرة، وهي حياة يشترك فيها كل أهل القرية.

وفي مقاطع أخرى من يذكر عددا من بيوت القرية الطينية «تبدو الديار الطينية القريب سقفها من الأرض مبعثرة سابحة في قيظ الهجير أو كأنها من بعيد تبدو سفنا تسبح في السّراب»[24]، كما يرتبط بعضها في ذاكرته بلحظات السعادة وبأحلام الطفولة و«كان **بيت خالك عمّار** هو عشك في الليل ومسرح لهوك ومعاشك في النهار فقد كان أبناء هذا البيت امتدادا لنسيجك النفسي والاجتماعي»[25]، يرتبط بيت خاله بدلالات التواصل والعلاقات الأسرية المتينة التي كانت تربط بين الأبناء، والإحساس بالسعادة والطمأنينة.

- **بيت فلان الكبير:** بيت يختلف عمّا ألفه في بيوت قريته، فهو كبير واسع فخم يحمل معاني الثراء والبذخ، «كان يذهب إلى دار فلان الكبير في نهاية كل أسبوع وكان يعطف عليه، ولا يكلمه إلاّ لماماً..لقد صار فردا من أفراد المنزل الكبير الواسع »[26]، ومع ذلك،فهو «يفتقد القيمية الحميمية»[27]، فلم يشعر الصبي فيه بالراحة والطمأنينة التي كان يجدها في بيوت القرية،بل كان يشعر بالنفور منه، وهذا ناتج عن إحساسه بأنه ضيف غير مرحب به، كما أنه عانى فيه من الظلم والقهر من أقرب الناس إليه.

القربي/ الكوخ: يجسد هذا البيت معاناة الصبي في مدينة بريكة «يذكر الآن أين كان ينام مع أخيه في قربي صغير يقع جوار غرفة للنوم والطبخ والحياة اليومية عرض «**القربي**" أقل من مترين أما طوله فمتران سقفه قريب من الرؤوس لا توجد فيه كهرباء، في زواياه الأربع اتسعت إمبراطورية العنكبوت جوار الصبيين أكداس من الكتان والصوف وأوانٍ منزلية قديمة كان الفراش حصيرا بالية وضعت فوقها "**درابل**" من الأغطية،..كانت الحياة في ذلك **المنزل** قاسية تبدأ بالصراخ والبحث عن الخبز وتنتهي باجتماع الأخوين الصغيرين على ضوء شمعة في ذلك **القربي** المنحوس ليطلقا العنان لخيالاتهما وأحلامهما في اللهو المعاش» (28)

يتتبع الكاتب في هذا المقطع تفاصيل هذا **البيت/ القُربي** من خلال تركيزه على أبعاده وحالته المزرية، فهو كوخ متهالك، لا يقي من برد الشتاء ولا حر الصيف، تقف مكوناته البسيطة (أكداس من الكتان/ أواني منزلية قديمة/ حصير بالية/ درابل من الأغطية)،لتعبر عن المستوى الاجتماعي البائس لهذه الأسرة.

- السّجن/ مصلحة الدرك:

السجن مكان مغلق معد لإقامة الشخصيات إقامة جبرية، يعلن دوما عداءه للشخصية، لانغلاقه وضيقه وظلمته، و«بوصفه عالما مفارقا لعالم الحرية خارج الأسوار»(29)، فهو مكان محبط واستلابي، فالشخصية تجبر على الانتقال إليه.

إن السجن في السيرة الذاتية يعبر عن تجربة واقعية خاصة، ففي سيرة " لقبش" يرتبط السجن بمدينة الجزائر العاصمة، حين كان يقيم الكاتب في بيت "فلان الكبير"، وهو ليس سجنا بالمعنى التام للكلمة، بقدر ما هو مكان يحمل معنى الضغط النفسي الذي يؤجج الإحساس بالألم والمرارة والظلم، إنه مكان تمارس في السلطة عنفها وتعسفها فهو العتبة الأولى التي تلج إليها الشخصية قبل السجن.

ونتعرف على فضاء السّجن/ غرفة الحجز الانفرادية مرة واحدة، حين يسترجع عياش قصة اتهامه بالسرقة ظلما وعدوانا في طفولته أثناء إقامته في بيت فلان الكبير، يلقى القبض على عياش/ الصبي وهو في المدرسة، «متهما بسرقة ثياب الأمير المدلل طارق ابن فلان الكبير واستقبلته صاحبة الشأن بالغضب الحاد والعتاب الجارح لم تشفع له

طفولته الذاهلة، ولا دموعه المنكسرة، كان يشبه أرنباً ضعيفاً محاصراً بالمخالب والرصاص على هضبة عارية وتحت وابل من الاتهامات والكلمات النابية»[30].

ينتهي الأمر بالصبي في مصلحة الدرك الوطني وهو يتساءل «هل يتطلب الأمر إدخاله إلى غرفة انفرادية مخصصه للحجز في مبنى الدرك الوطني؟ ...لكن فلان الكبير لم يخجل من نفسه وهو يوافق على الزج بطفل يتيم وحيد في غرفة انفرادية لدى الدرك،...كان الصبي القروي في غرفة الاستنطاق ينتعل حذاءً ممزقاً على الجانبين شعره أصفر أشعث، شفتاه يابستان كغصنين ميتين، أصابع يديه رقيقة كثيرة الحركة»[31].

يصف الكاتب وضعه في السجن قائلا: «كان الصبي يتأمل جدران غرفة الحجز مفزوعا يسمع بين الحين والأخر وقع خطوات تقترب من الغرفة ثم تبتعد، وكان مشغولا بزملائه التلاميذ الذين كانوا في تلك الأيام عاكفين على التحضير لامتحان العلوم الطبيعية والتاريخ والرياضيات،...فجأة فتح الباب بقوة دخل دركي كبير السن أخرجه من الغرفة ثم سلمه الى دركي أخر،..»[32]

ركز الكاتب على ما يميز هذه الأماكن المغلقة من خوف واضطراب، فالسجن من الأماكن الإجبارية المغلقة، «يحمل صفة الإكراه والخوف والقلق والاضطراب النفسي»[33]، إنّه صدمة لهذا الصبي القروي الذي انتهى به الأمر في فضاء الغرفة الانفرادية جريح النفس، مهانا في شرفه، بتهمة لم يقترفها.

يحمل السجن في السيرة الكثير من الدلالات السلبية، جعلت منه مكانا معاديا ومكروها يثير في النفس الإحساس بالظلم والاستلاب، ويذكي مشاعر الغضب والسخط على من كانوا سببا في اتهامه وسجنه، فمن الواضح أنه -رغم مرور السنين-، لم يسامح فلان الكبير وزوجته، وكيف يسامحهما وقد تعمدا أذيته، ولم تشفع له عندهما لا طفولته ولا غربته ولا حتى صلة الدم التي تربطه بهما.

- المسجد/ الكتاب:

يعد المسجد مكانا مغلقا، يمارس فيه أفراد القرية حياتهم الدينية حيث يقصدونه خمس مرات في اليوم لأداء صلواتهم المفروضة، كما يقصده أطفال القرية

لحفظ القران وتعلم أمور دينهم، وعلى الرغم من ذلك لم يُعنَ الكاتب برسم تفاصيله الطبوغرافية، إلا أنه قدم لنا الصفات الملازمة له كونه مكانا مغلقا، محاولة منه توضيح العلاقة التي تربط رواده به من جهة، وتحديد بعض الوظائف المنوطة به من جهة ثانية

يظهر لنا الكاتب المسجد مكانا لحفظ القرآن وتعلم أمور الدين، فيحرص أهل القرية على إرسال أولادهم إليه منذ الصغر، وهي عادة متوارثة أبا عن جد، فذاكرة الصبي الصغيرة« لا تنسى أبدا تلك الصباحات الندية حين كانت أمه تملا جيبي **"طابليته"** المزركشة بحفنتي تمر وتقف على حافة ركام المزبلة تشيعه بنظراتها إلى أن يتجاوز منحدر الوادي الصغير، وتأمن عليه كلاب القرية وهو متجه الى المسجد،..يسرح هو بخياله الصغير في غيابات الأتي المجهول وقد ينسى أنه ذاهب لحفظ السور القصار من القرآن الكريم»(34)، ويصف الكاتب المسجد من الداخل، مؤكدا وظيفته التعليمية «المسجد صياح مموسق وحركات أكتاف ورؤوس لا تنفك تنقطع تتخلل كل ذلك عصا طويلة تحوم فوق الرؤوس الصغيرة حينا وتلبد هادئة جنب الشيخ المسجد حينا أخر، في المسجد لحظتان إحداهما للبؤس وهي لحظة "العرض" و"الفلاقة" والثانية لحظة النعيم وفيها يتم إعلان نهاية الدرس بصوت يصدره الشيخ من بين أسنانه "سسسسس" ويعني ذلك الأمر بالصمت والإذن بالتسريح **القدادشة**»(35).

- المدرسة الداخلية:

إنّ المتأمل في فضاء المدرسة الداخلية بوصفها مكانا لتواجد بعض الطلبة ممن أجبرتهم الظروف على الإقامة فيه، يمكن اعتبارها مكانا مغلقا ومكان إقامة إجباري، وقد أوردها**الكاتب** في أكثر من موضع، كما أنه خصص لها ثلاثة نصوص كاملة بعنوان: **" الطفولة الهاربة" و"دار الطفولة لأبناء الشهداء" و"الهروب وأجمل الوصايا"**

إنها المدرسة الداخلية بمدينة **"نقاوس"** التي خصصت لأبناء الشهداء، ولأن الصبي ابن شهيد فقد أجبر على ارتيادها، و يذكر الصبي « اليوم الذي وصل فيه إلى دار الطفولة لأبناء الشهداء في مدينة نقاوس قادما من قريته الصغيرة مرورا بمدينة بريكة ،..كان ذلك سنة 1964، حين توقفت السيارة الصغيرة كانت هندسة المكان غريبة

وتتوسطها مساحات واسعة وفيها نوافذ كثيرة وفيها وجوه رجال لم يرهم قط،...وفي المطعم ذاق للمرة الأولى في حياته معجون المشمش كان طعمه ليس لذيذا فقط بل يمنح معنى جديدا وهو أن هذا المكان فيه مأكولات لا تعرفها القرية أبدا،..»[36]

لكن هذه المدرسة سرعان ما تتحول إلى سجن في نظر الصبي، ومنذ اللحظة الأولى لوصوله «في الساعة الثامنة صباحاً كان الصّبي أمام بوابة "دار الطفولة لأبناء الشهداء" وقف في طابور طويل يخضع لحملة تفتيشية أخذ منه المراقبون في الدار "الرفيس التونسي" والبلوط والبيض المشرشم والتمر وقيل له اذهب يا وحد الـ... فقد سامحناك هذه المرة ..تجرع السطو والكلمة النابية وأنزل أذنيه واندمج بين الأطفال»[37]

ولعل أبرز دلالات الإقامة الجبرية في هذا المكان: الجرس، الطابور، مراقب الغرفة، الأبواب المغلقة،.. ودعما لهذه الملفوظات الوصفية يأتي الكاتب بصورة للمدرسة ويشحنها بدلالات إضافية و«بعد رفع العلم تبدأ رحلة الرعب والتجويع والحرمان من الفطور والضرب بالعصا على أصابع اليد الواحدة مجتمعة أو ظهر الكف أو البصق على الوجه والتوبيخات المقذعة لكل من لم يغسل يديه جيدا أو أضاع أحد أزرار قميصه أو تمزق خيط حذائه وكثيرا ما كان بكاء الأطفال يتعالى خوفا قبل الوصول إلى مكان المراقبة»[38]، وندرك من المقطع كيف تحولت المدرسة من مكان للعلم والتربية إلى مكان تقهر فيه إرادة الأطفال الأبرياء وتهان كرامتهم، فإضافة إلى يتمهم وغربتهم عن أهلهم، يعمد موظفو الدار على تخويفهم وإذلالهم.

- المكتب:

يعد المكتب من الأماكن المغلقة، وما أورده الكاتب من أوصاف له جاء ليؤكد معاناة الصبي في طفولته، ويكشف عن يتمه وفقره أنه أحد العلامات المكانية البارزة في القرية، إنه همزة الوصل بين أهل القرية الفقراء والمؤسسة الحكومية، أنه المكان الذي يستقبل الفقراء واليتامى ليمنحهم الصدقة السنوية، من ثياب تستر أجسادهم «ذات صباح أرسلتك والدتك مع حشد من مساكين القرى المجاورة الى "**المكتب**" فقد كانت تتبع موعد توزيع "**الصداقة**"،..حين وصلت إلى "**المكتب**" رأيت رزما من الألبسة ووجوها شاحبة مثلك تبتلع ريقها وتخفي انكساراتها بابتسامات يابسة هي أشبه برماد قوم رحلوا

في اتجاه مجهول» [39]، يمثل المكتب بالنسبة لأهل القرية مكانا أليفا، يقدم لهم الصدقة السنوية من ثياب تجود به الدولة على الأسر الفقيرة والمحتاجة، ولكنه في الوقت نفسه يوحي بدلالات القهر والذل التي ارتسمت آثارها على وجوه الكثيرين، ومنهم الصبي.

2.5 الأماكن المفتوحة:

- السوق:

تعد السوق من الأماكن المفتوحة، تستقطب الكثير من الناس، لقضاء حوائجهم وشراء متطلبات الحياة اليومية، وقد حظيت في السيرة باهتمام الكاتب، فقد جعل منها مكانا يوحي بالفرح والبهجة، والاستمتاع، كما كشف الكاتب من خلالها عن شبكة العلاقات الاجتماعية التي تجمع روادها من مختلف شرائح المجتمع، لقد زار الصبي السوق وتجول فيه فبقيت صورتها راسخة في ذاكرته: «أنا شاتي نورح لسوق السبت باه عيني تفرح بلخيورات. أنا رحت الخريف اللي فات ..وين تلوح عينك يسيلو ريوقك الزلابية، بوذويلة، المنثور، الخروب، الخبز لبيض اللي يتصرط قبل ما يتمذق، ولعنب معرم أقواز أقواز كي نجوم السما عقاب الليل،.... مع من تلاقيت فالسوق؟ مع حتى واحد كنت وحدي والخيورات معرمة عرارم عرارم .. بعت زوج بيضات بزوج دورو .. شريتهم نوقة.. وشربت الحار فالبيت اللي ناصبينها في السوق ..» [40]، يجسد الكاتب في هذا المقطع رؤية الصبي الى السوق، وما تثيره في نفسه من مشاعر الفرح والسعادة، كما ترتبط بوعيه الطفولي لواقعه الاجتماعي.

- المقبرة:

ترتبط المقبرة بالموت، و«القبر مكان يتوحد فيه الزمان والمكان، فيتحولان إلى شيء واحد»، وقد ورد ذكر المقبرة في سيرة "**لقبش**" أكثر من مرة، بل إنها تكاد ترتبط بالموت والغياب ارتباطا قويا، حيث خصص الكاتب للمقبرة نصا كاملا يحمل عنوان"**عن الموت والموت الآخر**"، ويأتي في هذا النص على وصف مقبرة القرية، وصفا خارجيا، يركز فيه على ما علق بذهنه وترسخ في ذاكرته أيام طفولته الأولى عن هذا المكان حين زاره أول مرة «كان الصَّبي لا يتجاوز خريفه السادس يوم لمست قدماه الصغيرتان تربة **المكان الصامت**» [41].

إنّ المقبرة كما يصفها الكاتب مكان فيه «ينام أجداد القرية في قبور متجاورة نومتهم الأبدية بعيداً عن حركة العالم والناس وكواكب الليل والنهار، يتوسط قبورهم قبر الجد الأكبر سيدي أحمد بلقاسم» [42]، إنهامكان يربطه بأجداده، ويوحي بحالة الحزن والأسى التي تعيشها القرية.

والمقابر في قرية الصبي نوعان،بحسب مكانة الأشخاص الاجتماعية، فهناك «مقبرة قريبة من التجمعات السكنية، وأخرى بعيدة يتوسطها بين الشعاب الجبلية الخالية ضريح الجد الأكبر للقرية وفيها عادة يدفن أعيان القرية من نساء ورجال» [43]، كما تمثل المقبرة المكان الذي تمارس فيه القرية طقوسها، فقد «كانت غارقة في طقوس عادات متوارثة تؤمن بالأولياء الصالحين وبركاتهم و"**الطلبة**" وتمائمهم، وتتطير من دم الماعز وماء الغسيل والوقوف أمام الباب»[44]، والصبي كان شاهدا على كل ذلك«حين تقف بعيدا وتتأمل ذلك الحشد القروي متجها فجرا الى ضريح رجل من أولياء الله الصالحين ترى الفقر ماشيا متحدثا ملتفتا يسعى على الأرض وجوه عصرتها **"الهانة"** وارتسمت على ملامحها طعنات الزمن، وألبسة بالية باهتة في غير انتظام وضوضاء ترتفع حينا بالدعاء والتبتل لله وحينا بالضحك والتعاليق الساخرة»[45].

يمزج الكاتب في هذا المقطع بين وصف المكان وحالة البؤس والجهل التي يعيشها أهل القريته نساءً ورجالاً، فالجهل زاد من معاناتهم وفاقم الفقر من إحساسهم بالعجز، ولا تقف سيرة **"لقبش"** عند إبراز سلطة العادات والخرافات والإيمان بها من قبل أهل القرية بل نجده يقف موقف المنتقد لها والرافض منذ طفولته «في تلك الآونة يتوزع الأطفال على القبور لسرقة الشموع يعودون بها الى أمهاتهم قائلين في أنفسهم: "إن إضاءة كوخ يأوي عائلة خير من إضاءة قبر يأوي الرمام والديدان والصمت الطويل"»[46].

تبرز المقبرة في السيرة متأثرة بالوضع الاجتماعي والديني للقرية، يزوره النساء والرجال على حد سواء، وهي مكان يرتبط الحزن والأسى، وبالشعوذة والخرافة.

- الحقول/ المراعي:

من الأماكن المفتوحة (اللامتناهي)،تمثل المغامرة والحرية والاكتشاف، والإفلات من السلطة، وقدلجأ الكاتب إلى هذه الأماكن، لأنه وجد فيها الراحة والمتعة لاهيا عابثا،

يمارس فيها حريته وألعابه،«ككل الأطفال آنذاك يخرج حافيا، يهيم على وجهه في دروب القرية يتطلع برهة الى شنقورة بوطالب ثم يواصل طريقه الى بيت خاله، في الطريق تصادفه الأحمرة والدجاج وهموم الناس وعادة ما يتسلى بقتل الجراد المتطاير أمامه في حر الصيف» (47)، ويشكل وصف الطبيعة بحقولها ومراعيها نسبة كبيرة في سيرة لقبش،« كنت منذ أيامك الأولى على الأرض ضائعا تحت الشمس شاردا لا تهمد إلا حين يخطفك النوم ليلا»(48)إنّها المكان الأثير لديه،عبر تركيزه على وصفها، وتأكيده لعلاقة انتمائه إليها وهذا كافٍ للبرهنة على أنه شديد الاهتمام بعالمه الخارجي، واعيا بأن إدراك الذات لا يكون إلا بادراك الخارج والإحساس به، «هناك في خلاء القرية وجد علبا حديدية وبعض الصخور كان يلبس قندورة مزركشة بالمربعات جلس على الأرض وكانت القرية خالية من العصافير فقد حان وقت القيلولة وصارت الشمس عمودية، ولم يعد لظل الصبي وجود،.كان يلعب بالتراب يملأ به العلب ثم يفرغها ثم يكرر ذلك الى أن يسأم التكرار »(49)

كثيرا ما يحاول عياش أن يلتحم مع الطبيعة في هذه البقعة الخضراء بدفئها وجمالها «وفي الربيع كان الأطفال إلى جانب رعي الأغنام والماعز وقطع الحشيش يسيحون في السهول الخضراء والحمراء والصفراء والبنفسجية والبيضاء بأعشابها وزهورها بحثا عن أعشاش العصافير كل طفل منهم له أكثر من أربعة أو خمسة أعشاش.. »(50)

إنّ الحقول والمراعي هنا ليست مكانا جغرافيا صرفا وإنما هو مكان واقعي في الأدب، فالواقعية التي يقدمها الكاتب تقترب كثيرا من الواقع المفروض، وتكشفه، وتحاول صياغته ليس كما هو في الواقع الخارجي، وإنّما كما هو راسخ في ذهنه، متلون بالحالة الشعورية التي أحسها أثناء معايشتها أو أثناء كتابته لها، محررا الواقع بوساطة الخيال من صفته الحقيقيةمسقطا إياه على عالم سيرته الذاتية.«كان يخرج من واقع القرية التعيس الى الأفاق الوردية ..كان يعد الصبي بإبداع حكاية أخرى إذا ذهب معه في صباح غد الى منتجعات الغنم في "الحنية" أو "سيدي يوسف" أو "الرحامين" أو "الطبية" و"الحصباية" وغيرها من اسماء أماكن كانت منتجعات ومزارع قمح وشعير»(51).

5. خاتمة:

- اتسمت الأماكن في سيرة لقبش بمركزية في حياة الكاتب لها أهميتها من خلال سرد مغامراته زمن الطفولة، وقد ساهم المكان بشكل كبير في إعطاء نظرة شاملة عن الحياة التي عاشها الكاتب، ومعاناة جيل كامل من أطفال الجزائر الذين عاشوا بعد الاستقلال مباشرة.

- تنوعت الأماكن المغلقة في "لقبش" بدءا من البيت الذي عبّر عن السّعادة الطفولية، بقدر ما عبر عن الفقر وقسوة الحياة، إلى السجن والمدرسة الداخلية اللذين حملا معاني الظلم والقهر والخوف،..

- تباينت دلالات الأماكن المفتوحة في "لقبش" فمن السوق والحقول والمراعي كأماكن للبهجة والاستمتاع والمغامرات الطفولية، إلى المقبرة كمكان يربطه بالأجداد، وتمارس فيه طقوس متوارثة تعبر عن البؤس والفقر والجهل.

الهوامش:

---

(1)- ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م، ص42.

(2)-ابن منظور: لسان العرب، مج3، دار صادر، بيروت لبنان، ط2014،8م، ص208 (مادة جمل).

(3)-مجموعة مؤلفين: جماليات المكان، تر: سيزا قاسم، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988م، ص21.

(4)- حمد بن سعود البليهد: جماليات المكان في الرواية السعودية، من 1390هـ حتى 1423هـ، مخطوط أطروحة دكتوراه في الأدب، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1426هـ/1427هـ، ص15.

(5)-ابن منظور: لسان العرب، مج13، ص 136، (مادة مكن).

(6)-أوريدة عبود: المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية، دراسة بنيوية لنفوس ثائرة، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص30.

(7)-المرجع نفسه، ص.ن.

(8)-مجموعة مؤلفين: جماليات المكان، ص03.

(9)-صفاء المحمود: البنية السردية في روايات خيري الذهبي "الزمان والمكان"، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة البعث سورية، 2010/2009م، ص27.

(10)- حميد الحمداني: بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط3، 2000م، ص63.

[11]- عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط2، 1984م، ص143.

[12]- أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها، دار الكاتب العربي، 1964م، ص 551 شعبان عبد الحكيم محمد: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ص14و15.

[13]- فيليب لوحون: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994م، ص22.

[14]- مفهوم المكان في السيرة الذاتية، 2006/02/1،https://www.startimes.com/

[15]- عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، الجيزة مصر، 1992م، ص7.

[16]- عبد القادر فيدوح: المتخيل الذاتي في أخاديد "لقبش "، ص227.

[17]- عبد القادر فيدوح: المتخيل الذاتي في أخاديد "لقبش"، ص 228.

[18]- غاستونباشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط2، 1984م، ص38.

[19]- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص43.

[20]- غاستونباشلار: جماليات المكان، ص 09.

[21]- عياش يحياوي: لقبش، ص 44.

[22]- عياش يحياوي: لقبش، ص 161.

[23]- عياش يحياوي: لقبش، ص 45.

[24]- عياش يحياوي: لقبش، ص 84.

[25]- عياش يحياوي: لقبش، ص 198.

[26]- عياش يحياوي: لقبش، ص 133 و134.

[27]- غاستونباشلار: جماليات المكان، ص 53.

[28]- عياش يحياوي: لقبش، ص 66.

[29]- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص55.

[30]- عياش يحياوي: لقبش، ص 135.

[31]- عياش يحياوي: لقبش، ص135و 136.

[32]- عياش يحياوي: لقبش، ص 136.

[33]- محبوبة محمدي محمد آبادي: جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، ص75.

[34]- عياش يحياوي: لقبش، ص 91.

[35]- عياش يحياوي: لقبش، ص 92.

[36]- عياش يحياوي: لقبش، ص 93.

[37]- عياش يحياوي: لقبش، ص 65.

[38]- عياش يحياوي: لقبش، ص 100.

(39)- عياش يحياوي: لقبش، ص 47.

(40)- عياش يحياوي: لقبش، ص 180.

(41)- عياش يحياوي: لقبش، ص 69.

(42)- عياش يحياوي: لقبش، ص 69.

(43)- عياش يحياوي: لقبش، ص 117.

(44)- عياش يحياوي: لقبش، ص 110.

(45)- عياش يحياوي: لقبش، ص 70.

(46)- عياش يحياوي: لقبش، ص 71.

(47)- عياش يحياوي: لقبش، ص 41.

(48)- عياش يحياوي: لقبش، ص 51.

(49) عياش يحياوي: لقبش، ص41و42.

(50)- عياش يحياوي: لقبش، ص 163.

(51)- عياش يحياوي: لقبش، ص 57.